ويتبدى مقدار النجاح الذي أصابته المؤلفة أكثر وضوحاً إذا ما قيم على خلفية الهدف الذي وضعته نصب عينيها. ذلك أن الكتاب «لا يدعي أنه تاريخ اقتصادي اجتماعي شامل للفلسطينيين. فالهدف هو إعطاء نظرة انطباعية عن العلاقة والتفاعل ما بين التاريخ الاجتماعي والسياسي لأمة وبعض صور هذا التاريخ». ومع ذلك فإن للكتاب أهمية تتعدى هذا الهدف المحدود. فهو يبين بطريقة بعيدة جداً عن الدعاية المباشرة، إن فلسطين لم تكن كما تصورها الدعاية الصهيونية أرضاً جرداء خالية لا يسكنها إلا بدو متنقلون. ومن جهة أخرى، يساهم باستخدام عامل بالغ القوة هو التمثيل التصويري في عملية ضرورية، هي محاكمة الغرب لمنظوراته الماضية والراهنة تجاه الشعوب التي عدّها وما زال يعدها بدائية غير عقلانية لا تتحول ولا تتغير. وفي النهاية لابد من الإشارة إلى أن الكاتبة لابد أنها تكبدت عناء كبيراً في تجميع صور الكتاب التي بلغ مجموعها ٢٤٥ صورة.

فلورا لحام